مقتل السلطان قطز

على يد بيبرس

obeikandl.com

obeikandl.com

مقتل السلطان قطز على يد بيبرس

في الوقت الذي استعدت فيه القاهرة لاستقبال السلطان قطز بطل عين جالوت، وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريمًا لبطولته ، إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز واعتلاء بيبرس عرش السلطنة ، ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظًا من التقدير بعد ما أبداه من شجاعة في محاربة التتار، فطلب بيبرس من قطز أن يوليه نيابة حلب: فاعتذر له قطز ، وآثر على نيابة حلب الملك المظفر علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار، الأمر الذي أغضب بيبرس ، وجعله يضمر السوء لقطز، ومما حفّز بيبرس على قتل قطز أن المماليك الصالحية ومنهم بيبرس لم ينسوا لقطز أنه شارك في قتل كبيرهم أقطاي في زمن أيبك، وبمعنى آخر فإن المماليك الصالحية أحسوا دائمًا أن لهم ثأر في عنق قطز، ولذا لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التحريض والاستثارة ضد قطز.

وقد أدرك قطز ما يضمره له بيبرس، فتحرز منه ، وكان بيبرس قد دبر خطة لقتل السلطان قطز بالاتفاق مع عدد من أمراء المماليك الصالحية من بينهم الأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتون الجوكندار المعزى ، وسرعان ما حانت الفرصة لتنفيذ الخطة عندما وصل ركب السلطان قطز إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة ، وهناك أبدى قطز رغبته

في الصيد برفقة الأمراء ، فلما فرغ من صيده وعاد إلى الدهليز السلطاني تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبي التتار، فأجابه السلطان إلى طلبه ، وأنعم عليه بما أراد، وعندئذ تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان، وكانت هذه إشارة بينه بين شركائه في الخطة ، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة، فبَدّره الأمير بدر الدين بكتون بالسيف، وضربه على عاتقه، واختطفه الأمير بدر الدين أنس الإصبهاني وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت خامس عشر من ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ / أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠م .

وكان طبيعيًا أن تؤول السلطنة بعد مقتل السلطان قطز إلى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس ، بوصفه أقوى الأمراء الصالحية من ناحية ، وصاحب الفكرة في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلًا عن مواقفه المشرفة في محاربة التتار من جهة ثالثة ، وتروي المراجع أن أمراء المماليك الصالحية الذين قتلوا قطز ساروا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس ، وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتْل السلطان قطز، وعندئذ سألهم الأتابك:

-«ومن قتله؟» .

فقال بيبرس:

-«أنا».

فنظر إليه الأتابك وقال:

-«يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة».

واستدعى العسكر في الحال ليحلفوا للسلطان الجديد. وفي هذه الأثناء كان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز، ويهنئه بانتصاره في عين جالوت، فاستُدعى القاضي نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس، وبعد أن تمت الإجراءات المبدئية في الصالحية، قال الأمير أقطاي لبيبرس:

-«لا تتم السلطنة إلا بعد دخولك قلعة الجبل».

فأسرع بيبرس ومعه صحبة من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال السلطان المظفر قطز بطل عين جالوت، فإذا بالمنادي ينادى في طرقات القاهرة:

-«ترحموا على الملك المظفر وادعو لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس».

وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل، فلقيه الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة، وكان قد خرج لقاء قطز، فأخبره بيبرس بما حدث،

وعندئذ حلف نائب السلطان للسلطان الجديد، وتقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأمراء ولاءهم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد.

obeikan

قلعة الجبل

ويروى المؤرخ ابن تغري بردي أن الوزير زين الدين يعقوب – وكان فاضلًا في الأدب وعلم التاريخ – دخل على السلطان بيبرس بالقلعة، فأشار عليه بتغيير لقبه «القاهر» وقال له:

-« ما لقب به أحد فأفلح، لقب به القاهر بن المعتضد، فلم تطل مدته، وخلع من الخلافة وسحل، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسمِل.

لذلك تشاءم بيبرس من لقبه القاهر، وأبطله، واتخذ لقبًا جديد هو «الملك الظاهر»[1].

(١) « النجوم الزاهرة» (٧/ ١٠٣-١٠٤)؛ نقلًا عن «العصر المماليكي في مصر والشام»، دكتور سعيد عاشور (ص٤٠).

obeikandl.com